في مجلس سيف الدولة

بين المتنبي وأبي فراس

(٢)

لك أن تسميها مناظرة ولك أن تسميها مهاترة ، بل سمها — إن شئت — منافرة ، أما نحن فلا نراها إلا مؤامرة

نعم فهي مؤامرة محكمة دبرها أعداء المتنبي ولم يألوا في تدبيرها جهداً ، رغبة في هدمه والقضاء عليه ، ولم يدبروا هذه المؤامرة المجرمة لهدم شهرته الأدبية وحدها كما رأينا في مناظرة « الهمذاني والخوارزمي [١] » وفي « مناظرة الكسائي وسيبويه [٢] » بل كانوا يرمون إلى أبعد من ذلك ، فقد قصدوا بها الى غرضين، أولهما أن يهرموه في مجلس سيف الدولة — وثانيهما أن يقتلوه غيلة — بعد خروجه من عنده ، بل لقد همّ جماعة بقتله في حضرة سيف الدولة نفسه

وقد رأى القراء — في مقالنا السابق كيف أعرض عنهُ سيف الدولة بعد إقبال وكيف أفلحت دسائس خصوم المتنبي — وعلى رأسهم « أبو فراس » و « ابن خالويه » — في تنفير سيف الدولة منهُ ، فقابله متجهماً وحاول المتنبي عبثاً أن يرضاه بقصيدته الرائية [٣] فلم يجد الى ذلك سبيلاً ، فخرج من عنده كاسف البال محزوناً ، وكان هذا الاعراض أكبر أثر ظاهر لنجاح خصوم المتنبي وأعدائه وأول ظفر باهر لفوز السعايات والدسائس عند سيف الدولة الذي لم يكن ليصيخ من قبل الى قول الوشاة أو يتأثر بدسائسهم ، أو الذي

(١) ارجع الى عدد يوليو من المقتطف (ص ١٠٥)
(٢) ارجع الى عدد اكتوبر من المقتطف (ص ٣١٦)
(٣) انظر مقتطف نوفمبر السابق (ص ٤٣٧)

كان — على الأصح — لا يكاد يصغي إلى قول واش حتى ينصرف عنهُ متى سمع قصيدة جديدة من مدائح المتنبي الخالدة

أما الآن فقد تغيَّر عليهِ قلبه وأصبح لا يقبل عليهِ إلا ريثما يضاعف سخطه ويمعن في الكآبة به. قالوا: وكان من عادة سيف الدولة اذا تأخر عنه مدحهُ شق عليهِ وأحضر من لا خير فيهِ وتقدم اليهِ بالتعرض له في مجلسهِ بما لا يحب وأكثر عنهِ مرة فكان ذلك سبباً في نظم « ميميته النفذة » التي نحن بصددها في هذا المقال. ولقد تجلى في هذه المرة اعراض سيف الدولة وتحيزه لخصوم المتنبي ، أكثر مما تجلى في إعراضهِ الاول

(٢) اعراضه الثاني

وقد عرف المتنبي سرَّ هذا الاعراض فأعد عدتهُ ونظم ميميتهُ الرائعة فأودعها كل ما أوتي من قوة ومقدرة في الدفاع عن نفسهِ ، ولم يدع وسيلة من الوسائل التي يهاجم بها حساده وخصومهُ وينال منهم إلا سلكها جريئاً قادراً ، ودافع عن نفسهِ دفاع اليائس المستميت ، ولم يتورع عن مهاجمة الأمير « أبي فراس » الذي طالما أظهر له التهيب وزعم أنهُ لم يجرؤ على مدحه « إجلالاً » « لا إغفالا »

ماذا ؟

بل ذهب إلى أبعد من ذلك فهاجم سيف الدولة نفسه ولم يتهيبه وقرعه أشد تقريع ألا ترى اليهِ يعاتبهُ فيقول له مقرعاً : —

« كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرمُ
ما بعد العيب والنقصان عن شرفي أنا الثريا ، وذان الشيبُ والهرمُ »

ثم يتهدده بالرحيل فيقول : —

« أرى النوى تقتضيني كل مرحلة لا استقلّ بها الوخّادةُ الرُّسُمُ
لئن تركت (ضميراً)[1] عن ميامننا ليحدثن لمن ودعتهم ندم
إذا ترحلتُ عن قوم — وقد قدروا أن لا تفارقهم — فالراحلون هم

ويقول: « شر البلاد بلاد لا صديق بها وشر ما يكسب الانسان ما يصم »

ويعرض بأبي فراس في قوله — :

« أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه وَرَمُ »

ويقرع منافسيه بقوله :

---

(١) « ضمير » اسم جبل على يمين طالب مصر من الشام ، وهو قريب من دمشق

«بأي لفظ تقول الشعر زعنفة تجوز عندك لا عرب ولا عجم»

ويفخر على جميع الحاضرين فيقول :

«سيلم الجمع — ممن ضم مجلسنا — بأني خير من تسعى له قدم !»

إلى آخر ما قال

الحق أن المتنبي لم يكن في هذه المرة شاعراً فحسب ، بل كان شاعراً فارساً يتأهب لخوض غمار موقعة حربية حامية الوطيس سنيناً بكل ما يلقاه فيها من أذى موطناً نفسهُ على كسبها أو الاستشهاد فيها

ولقد خاطر المتنبي بنفسه في هذه المرة وغرر بها — وهو الذكي الحازم الحصيف — وركب مركباً وعراً ، وكأنما كان يضع نصب عينيه قوله :

«اذا لم يكن إلاّ الأسنة مركباً فما حيلة المضطر إلاّ ركوبها»

وقوله : «غير أن الفتى يلاقي المنايا كالحات ولا يلاقي الهوانا

وإذا لم يكن من الموت بدّ فمن العجز أن تكون جبانا»

ولقد صدق فيه قوله :

«لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن أقحم حتى لات مقتحم»

على أن المتنبي — رغم جرأته — قد أظهر في هذا الموقف براعة فائقة وحذقاً ممتازاً عجيباً فكان كالربان الماهر يغالب العاصفة الهوجاء بكل ما أوتي من يقظة ودربة وحزم

لقد كان يعرف أن سيف الدولة مغيظ منهُ محنق عليه وأن خصومه متأهبون لنضاله والكيد له ، وأنهم لم يصلوا إلى إيغار سيف الدولة عليه إلاّ بما أدخلوا في روعه من تمالي عليه وعجرفته وسوء أدبه ومدحه نفسه الى جانب مدحه اياه(١)

كان المتنبي يعرف ذلك ، ولكنهُ أبى إلاّ أن يُرْبي على الغاية في مناوأة خصومه فكان المدح لنفسه ولسيف الدولة بأوفى مكيال ورفع نفسه الى منزلة لم يكد يزعمها لنفسه في كل مدائحه السابقة رغم ما يعرفهُ من حرج الموقف ودقته

ولعل أول ما يستدعي انتباهنا في هذا المجلس الحاشد أمران

(١) قوة المتنبي ويقظته

(٢) وبديهة أبي فراس وفطنته

---

(١) قالوا : « وكان المتنبي يتعالى على سيف الدولة وكان سيف الدولة يتغاظ من تعاظمه ويحقد عليه اذا كلمه والمتنبي يجيبه في اكثر الاوقات ويتغاضى في بعضها »

فقصيدة المتنبي هذه اذا أخذت برأي القائلين بأنهُ ارتجل أكثر أبياتها — تدل على سرعة خاطرة . واذا اخذت برأي القائلين إنهُ أعدها من قبل ، تدل على يقظة مدهشة وعلى تنبؤ عجيب بما توقع حدوثه من خصومه ، كما تدل على أنهُ كان :

« الألمعي الذي يظن بك الظـــن كأن قد رأى وقد سمعا »

ولعل الجمع بين الروايتين هو الأقرب للعقل ، فقد نظم المتنبي قصيدته وتوقع أشياء هذه المفاجئات فأعد لها عدته ، وساعدته نفسه الثائرة على ارتجال أبيات قليلة دفعه الى ارتجالها ذلك الظرف الحرج الدقيق (١)

***

ونقد كان يقتك بالمتنبي خصومه في حضرة سيف الدولة — كما أسلفنا — وهم جماعة يقتله في مجلس سيف الدولة — لشدة ادلاله واعراض سيف الدولة — فلما وصل في انشاده الى قوله :

« يا أعدل الناس الاَّ في معاملتي كيف الخصام وأنت الخصم والحكم؟ »

تصدى لهُ ابو فراس فقال لهُ : مسخت قول دعبل وادعيته ، وهو :

« ولست أرجو انتصافاً منك ما ذرفت عيني دموعاً وأنت الخصم والحكم »

وليت شعري كيف يكون الابداع والتجميل اذا عدَّ هذا مسخاً وتشويهاً ، ولكنهُ

---

(١) ولسنا بذلك ننكر على المتنبي قدرته على الارتجال وسرعة البديهة ، فقد شهد له النقاد بذلك وأثبتت الحوادث قدرته العجيبة على الارتجال ، فمن ذلك ما يروونه عنه قوله — وكان قد أنشد بعض أبيات ولم يظهر معنى البيت الأول لقوم كانوا في مجلس سيف الدولة :

أتيت بمنطق الدرب الاصيل وكان بقدر ما عايبت قيلي
فعارضه كلام كان منه بمنزلة النساء من الفحول
وهذا الدر مأمون التنظي وأنت السبك مأمون الفلول
وليس يصح في الاذهان شيء اذا احتاج النهار الى دليل

ومن ذلك ما يروونه من أن بعض أصدقائه طلب اليه أن يصف له سادنة وقعت له فحكه المتنبي في الوزن والقافية فقال صاحبه : « لا ، بل الامر فيها اليك »

فأخذ ابو الطيب درجا واخذ صاحبه درجا آخر يكتب فيه كتاباً ، فقطع عليه ابو الطيب الكتاب وأنشد ارجوزته المشهورة التي اولها : « ومنزل ليس لنا بمنزل » وأمسك ان يرجع اليها القارىء في ديوانه

وقد قال ابن رشيق في ذلك — : وكان أبو الطيب كثير البديهة والارتجال الا ان شعره فيها نازل عن طبقته جدا ، وهو لعمري في سعة من العذر لو كانت البديهة كما يقول ابن الرومي :

« نار الزوية تارجد منضجة والبديهة نار ذات تلويح
وقد يضنها قوم لسرعتها لكنها سرعة تمضي مع الريح »

الهوى والغرض والتحامل . ورأى المتنبي أن أبلغ ما يرد به على انتقاده هو ان يصارحهُ برأيه فيه الذي طالما كتمهُ وأخفاه عنه ، فأنشد سيف الدولة :

« أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم »

قالوا : فعلم ابو فراس أنهُ يعنيه فقال :

« ومن أنت يا دعي كندة حتى تأخذ اعراض اهل الامير في مجلسه »

ولكن المتنبي لم يبأ بهِ ولم يلتفت اليهِ بل استمر في انشاده الى أن قال :

سيعلم الجمع — ممن ضم مجلسنا — بأني خير من تسعى بهِ قدم
أنا الذي نظر الأعمى[1] الى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

قالوا : فزاد ذلك غيظاً في أبي فراس وقال : « سرقت هذا من عمرو بن عروة ابن العبد في قوله :

« أوضحت من طرق الآداب ما اشتكلت دهراً وأظهرت اغراباً وابداعا
حتى فتحت بإعجاز خصصت بهِ اللعنى والصم أبصاراً وأسماعا

ولما وصل الى قوله :

« والخيل والليل والبيداء تعرفني والحرب والضرب والقرطاس والقلم »

لم يستطع منافسهُ أبو فراس أن يخفي موجدته عليه وأبى الاّ أن يصارحه بالكيد ويدمّ له علناً عند سيف الدولة فقال له : —

وما أبقيت للأمير إذا وصفت نفسك بالشجاعة والفصاحة والرياسة والسماحة ؟ تمدح نفسك بما سرقته من كلام غيرك وتأخذ جوائز الأمير ؟

أما سرقت هذا من الهيثم بن الأسود النخعي :

« أعاذلتي كم مهمه قطعته أليفَ وُحوشٍ ساكنا غيرهائب
انا ابن الفلا والطعن والضرب والسُّرى وجود المُذاكي والقنا والقواضب
حليم وقور في البلاد ، وهيبتي لها في قلوب الناس بطش الكتائب »

---

(١) قالوا ان ابا العلاء حين قرأ هذا البيت قال : « كأنما عناني المتنبي بهذا البيت »
ولقد كان اعجاب ابي العلاء بالمتنبي عظيما جداً ، واستدل بعضهم بهذا الاعجاب على تفوق المتنبي عليه ، وهو استدلال بعيد . فقد كان اعجاب المعري بأبي الطيب من قبيل اعجاب العظيم بالعظيم والند بالند لا اعجاب التلميذ بالاستاذ . وان تأثر به في صباه . وعندنا ان المتنبي — على عظمته وعلى اجلالنا له — اذا قورن بالمعري ذاك كفته ورجحت كفة ابي العلاء رفضله في كثير من المزايا الباهرة التي اتصف بها المعري — او كاد — من بين شعراء العربي قاطبة ، وليس هذا مقام التفصيل وانما هو رأي اثبتناه عرضاً

ولعلك تلمح في قول ابي فراس « وتأخذ جوائز الأمير » سرًّا من أسرار حقده على المتنبي . وأنشد المتنبي قوله :

« وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم؟ »

فقال ابو فراس : وسرقت هذا من قول معقل العجلي :

« اذا لم أميز بين نور وظلمة بعيني، فالعينان زور وباطل؟ »

ولمحمد بن أحمد بن أبي مرة المكي مثله :

« إذا المرء لم يدرك بعينه ما يرى فما الفرق بين العمى والبصراء؟ »

***

قالوا : وغضب سيف الدولة من كثرة مناقشته في هذه القصيدة وكثرة دعاويه فيها ، وضربه بالدواة التي بين يديه . ولو كان المتنبي — كغيره من الناس — لانهزم مرغماً بعد أن رأى روح الخصومة واللدد مهيمنة على هذا المجلس ، ولكن المتنبي ممن لا يزيدهم الخصومة إلا قوة على قوته ، ومن الناس من تشحذ الخطوب خاطرهم وتضاعف من يقظتهم وتقوي من حجتهم . والمتنبي من هذا الفريق . قالوا : فقال المتنبي في الحال :

« إن كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح — إذا أرضاكم — ألم »

فلم يكد يسمعه سيف الدولة حتى انطلقت أساريره وبدا البشر على وجهه وأراد ابو فراس ان يسير على هذه الوتيرة فقال له : أخذت هذا من قول بشار

« اذا رضيتم بأن نجني ، وسركم قول الوشاة ، فلا شكوى ولا ضجر »

ومثله لابن الرومي : —

« اذا ما الفجائع أكسبتني رضاك فما الدهر بالفاجع »

فلم يلتفت سيف الدولة الى ما قال ابو فراس وأعجبه بيت المتنبي

قالوا :

ورضي عنه في الحال وأدناه اليه وقبل رأسه وأجازه بألف دينار ثم أردفه بألف أخرى فقال المتنبي :

جاءت دنانيرك مختومة عاجلة ألفا على ألف
أشبهها فعلك في قيلق قتله صفًّا على صف

كامل كيلاني